كلمة

السيد أحمد أبو الغيط

الأمين العام لجامعة الدول العربية

في المعهد الدبلوماسي العـــراقي

تحت عنوان

"تجديد العروبة"

(2017/3/15)

السيدات والسادة،

من دواعي سروري أن أقف اليوم بينكم في رحاب وزارة الخارجية العراقية... العراق ركن ركين في العروبة، ثقافة وسياسة... شعباً وحكومة...تاريخاً وحاضراً..

ليس فقط لأنه عضوٌ مؤسس في الجامعة العربية.. ليس فقط لأن تاريخه الحديث ارتبط بالفكرة العربية، أو لأن مثقفيه الكبار نظروا لها، ودافعوا عنها، وبشروا بها ... ولكن لأننا نشعر حقاً بمعنى العروبة مُجسداً وماثلاً في رحاب الحواضر العربية الزاهية التي طالما شكلت مركزاً للثقافة والآداب والعلوم، وبغداد تأتي على رأس هذه الحواضر التي شهدت أوج ازدهار حضارة العرب بكل وجوهها...

وتعرفون جميعاً المقولة الشائعة أن الكتاب يُكتب في مصر ويُطبع في لبنان ويُقرأُ في العراق... وهي مقولة ما زالت صحيحةً تماماً إلى يومنا هذا..

لذلك أقول إن عروبة العراق تُمثل معنى عزيزاً على العرب جميعاً، وليس على العراقيين وحدهم.. والظروف التي مر بها هذا البلدُ الأبي خلال العقدين الماضيين آلمت كلَ عربي، ومثلت وجعاً في قلب كل من يعرف تاريخ الأمة العربية ومكانة العراق فيه..

الإخوة الأعزاء..

علينا أن نعترف، من باب المكاشفة والمراجعة، أن العروبة ظُلمت معنا.. ظُلمت في الفكر والممارسة.. في النظرية والتطبيق... وإن المتأمل في أحوال النصف الثاني من القرن العشرين، بإمكانه أن يقف على الأسباب

والبواعث التي أدت إلى انحدار العروبة وامتهانها على أيدي أبنائها حتى وصلنا إلى ما نحن فيه اليوم من تفكك للأوطان، وتفتت للدول، وتشتت للهويات..

لقد نشأتُ في زمنٍ كانت العروبة فيه المناط الأعلى للانتماء.. تربيتُ على أن هويتي المصرية والعربية هما شيء واحدٌ تقريباً.. تشربتُ أن مصلحة الوطن الأصغر لا تتحقق إلا بعز الوطن الأكبر وارتقائه... وأن الأمن القومي العربي ليس مُجرد مفهوم نظري أو فكرة مثالية، بل هو واقع استراتيجي تفرضه الجغرافيا أولاً، والتاريخ ثانياً، والانتماء قبل هذا وذاك...

أقول إنني نشأتُ على كل هذه المعاني، كما نشأ كافة أبناء جيلي.. ثم كان أن فُجعنا بما جرى في 1967.. ولا يُمكن لمن لم يشهد هذه المأساة أن يُقدر مدى عمق الجُرح الذي حفرته في نفوسنا، ولا قدر الألم النفسي الذي سببته لجيلنا كله... فقد يحدث أن تواجه الشعوب الأزمات، وقد يحدث أن تنتكس مسيرتها، ولكن قلما تتعرض لمثل ما تعرضت له الأمة العربية في الخامس من يونيو 1967 من شعور مرير بالهزيمة الحضارية الشاملة.. ولا شك أن العروبة، كفكرة وفلسفة ومبدأ سياسي، كانت احدى ضحايا هذه الهزيمة التي زعزعت ثقة العرب بأنفسهم، وقوضت يقينهم بثوابتهم السياسية والوطنية ... الهزيمة لم تكشف عن ضعف عسكري بقدر ما عرت حقيقة واقع مهلهل وممزق بالصراعات البينية، والمنافسات الصغيرة .. الجيوش الغازية لم تدخل من حدودنا و"إنما تسربوا كالنمل من عيوبنا" كما قال أحد كبار شعرائنا يوماً...

ويرغم محو عار الهزيمة العسكرية بعدها بعدة سنوات، فقد ظل هذا الواقع بكل تناقضاته وعوامل ضعفه وهشاشته قائماً، بل إنه –وللأسف– تعزز وترسخ...فإذا بنا أمام نُظم سياسية توظف الفكرة العربية لتؤسس منظومات للقمع والقهر... وإذا بالعروبة، على أيدي هذه النظم، تصير سبيلاً لتبرير الاستبداد ... لقد كان ذلك هو الظلم الثاني للعروبة على أيدي نفر من أبنائها... إن النظم السياسية التي قامت باسم القومية العربية في بعض ربوعنا أساءت لفكرة عظيمة سامية، إذ جعلتها مرادفاً للهيمنة على المجتمعات وقمع المختلفين في الرأي، بل وإلغاء الآخرين المختلفين في العرق أو الطائفة... وكأن العروبة حكرٌ على حزبٍ أو فئة دون غيرها، أو كأنها ضرب من ضروب الفاشية المصابة بالاستعلاء والانغلاق...

والأخطر أن هذه الفكرة النبيلة التي ترمي إلى توحيد كلمة العرب، وجمع شملهم صارت –على أيدي بعض الحُكام– حجة لانتهاك كرامة الإنسان بل وسيادة البُلدان تحت مُسمى العروبة التي صارت، وللأسف الشديد، ترتبط في أذهان الأجيال الجديدة بهذا النوع من العبث السياسي والعدوان...

الإخوة الأعزاء...

لقد أدى هذا النهج في فهم العروبة وتطبيقها إلى انكشاف الأوطان وتمزيق الأمة ... بل وأسهم في تسميم أجواء العلاقات العربية، بأن جعلها رهناً لمُنافسات صغيرة على الزعامة ... وصارت العروبة سلاحاً للمُزايدة وساحة للمُكايدة.. فسمعنا الحُكام يرمون بعضهم البعض بالخيانة، أو بالتنكر

للعروبة، أو بالتنصل من القضية القومية... وكأن هناك من يملك حصراً منح صكوك العروبة أو منعها... وكأن العروبة سلاحٌ نطعن به بعضنا البعض، وليست جسراً نعبر عليه فوق خلافاتنا...

وأقول بكل صدق إن هذه الأفكار والممارسات ألحقت ببلادنا وبأمتنا، بل وبفكرة العروبة نفسها، أشد الضرر... لقد صار علينا –وبعد كل ما جرى– أن نُراجع مفهوم العروبة ذاته، في تجلياته النظرية وتطبيقاته العملية على حد سواء.. فالأفكار الجامدة تندثر وتموت.. والأفكار الحية هي التي تدخل في حوار مُستمر مع العصر ومُستجداته...

أزعم أن العروبة فكرة مُتجددة.. بل وأزعم أن زمانها أمامها وليس وراءها.. وأن مجدها آت وليس غابراً .. أقول هذا ليس من باب العاطفة والحماس، وإنما بواقع المُراقبة الموضوعية لأحوالنا.. فالفكرةُ العربية، أول ما ظهرت، كانت تهدف إلى الارتقاء بولاء البشر من الانتماءات القبلية والمذهبية، إلى شيء أعلى وأسمى... واليوم، لا يحتاج المرء لجهد كبير ليُدرك كيف انفرط العقدُ في عددٍ من أوطاننا، وارتد الناس ثانية إلى حالة التعصب للقبيلة والمذهب بدلاً من الإيمان بالوطن والأُمة... إننا لم نكن في أي وقت أحوج إلى إحياء العروبة، فكراً وممارسة وانتماء، مما نحن الآن...

ولكن أي عروبة نقصد؟ وأي فكر قومي ننشد؟.. كيف نُجدد عروبتنا لتُساير الزمن، كيف نجعل منها رافعةً للتقدم والنهضة؟

في معرض الإجابة على هذه الأسئلة .. سأطرح أربع نقاط مختصرة بهدف تحفيز التفكير، وإثارة النقاش:

الأولى: أن الدعوة إلى القومية العربية كانت مؤسسة على الثقافة في المقام الأول.. على الرابطة الحضارية التاريخية.. على اللغة العربية باعتبارها الوعاء الحاضن لهذه الثقافة، وذلك التاريخ .. وليس صدفة أن أول دعاتها كانوا ممن عملوا بالتدريس والتعليم... ولا شك عندي في أن جوهر العروبة والقومية العربية يتعين أن يظل ثقافياً حضارياً، فالعروبة ليست رابطة دم أو عنصر، وإنما وجدان وثقافة.. ويتأسس على ذلك أن العروبة هي بالضرورة فكرة منفتحة وحاضنة وليست إقصائية أو طاردة... فكل من ينتمي للثقافة العربية ويتحدث لغتها هو قومي عروبي بالضرورة، بغض النظر عن دينه أو مذهبه.. بغض النظر عن انتمائه العشائري أو العرقي... إن العروبة مظلة جامعة لكل هذه المكونات.. وعروبتنا الجديدة التي ننشدها لا تلغي هذه الاختلافات ولا تُنكر وجودها أو تسعى لمحوها.. عروبتنا الجديدة هي وسيلة للتعايش بين هذه المكونات في دولة لكل مواطنيها.. تبني على هذا المُشترك الثقافي كعنصر انسجام ورصيد قوة للمُجتمع والدولة، ولكن لا تفرضه على أحد، ولا تستثني من العروبة أحداً.. فلا تُعادي ديناً أو مذهباً أو عرقاً..

النقطة الثانية أن العروبة التي ننشدها لا يجب أن تبقى حقيقة ثقافية فحسب، بل ينبغي أن يكون لها تجليات سياسية واقتصادية.. ولكن يتعين علينا أن نتوقف ملياً أمام تجاربنا السابقة لنستلهم العبرة ولا نكرر الأخطاء... فالعمل العربي، كما توافق عليه الآباء المؤسسون للجامعة العربية، هو تعاون بين دول كاملة السيادة، مستقلة الإرادة .. هذه هي

الصيغة التي تعمل بها الجامعة، فهي ليست منظمة فوق الدول، وليست إرادة أعلى من إراداتهم .. وإنما هي جسر للتنسيق بينهم وأداة للتوفيق بين مصالحهم.. وظني أن هذه هي الصيغة الأنسب للواقع العربي.. ربما هي أقل من طموح البعض منا.. ربما لا تحقق أحلامنا بالكامل.. ولكنها تبقى الأكثر عقلانية في ظل الظروف القائمة... وهي صيغة تُحصننا من المُزايدات أو حتى التعديات باسم العروبة التي طالما سممت أجواء العلاقات العربية ... وليس بخافٍ عليكم أن بعض المشروعات الوحدوية التي أخذت بفكرة "المنظمة فوق القومية" تمر اليوم بمرحلة من المراجعة وتواجه تنامياً للمشاعر القومية داخل كل دولة.. كما هو الحال في الاتحاد الأوروبي...

النقطة الثالثة.. أن العروبة هي فكرة تقدمية، تُخاطب المُستقبل.. وقد ترافقت نشأتها مع المشروع النهضوي العربي... إلا أن التجسيد السياسي للعروبة كان في أحيان كثيرة مُجافياً لقيم التقدم والنهضة، وقريناً للاستبداد والحُكم الشمولي... علينا أن نعترف بهذا ولا نخجل منه أو ننكره... علينا أيضاً أن ننقي العروبة مما علق بها من كل ممارسات الاستبداد، والفكر الذي يُبرره .. عروبتنا المنشودة تؤسس لحُكم رشيد.. لدولة مؤسسات تقوم على حُكم القانون والدستور...

النقطة الرابعة والأخيرة... أن العروبة ليست أيديولوجية تُفرض من أعلى جبراً وقسراً... وإنما هي اختيار حرٌ للشعوب... على كل الطامحين إلى إعلاء كلمة العروبة أن يلتفتوا إلى الشعوب.. من هنا يبدأ العمل ... من التعليم .. من العلاقات الاقتصادية .. من حرية الانتقال.. من دعم الاتصال

بين الشباب العربي.. من تبادل الخبرات بين الأكاديميين والمهنيين العرب.. العروبة هي محصلةٌ لكل هذه التفاعلات والعلاقات بين الشعوب... وقوة الفكرة العربية من قوة هذا التفاعل الشعبي... والحق أقول لكم إن هذه المجالات والمسارات تأخذ من اهتمامي وجهدي في العمل العربي في إطار الجامعة ما يوازي العمل على المسار الرسمي والسياسي، وربما أكثر... فيقيني الراسخ أن العروبة، كأي فكرة حية، تبدأ من الناس وتنتهي بهم.

شكـــراً لكـــــم،